

تعريف ونقد



تحقيق : الأستاذ عبود الشالجي تقديم وفهرس : الأستاذ محمد عبد الفتى حسن

لأن النشوار ما يظهر من كلام حسن ،
فيقال : (إن لفلان نشوارا حسنا . أى كلاما
حسنا) . وسواء أكانت كلمة (النشوار)
بالشين المعجمة كما وجدت في الأصول ، أو
بالسين المهملة كما يلفظها العامة وكما وجد بخط
القاضي أبي جعفر أحمد بن أسحاق بن
الهنول التنوخي وهو حجة في رواية اللغة ،
فأنها لم يصقلها الاستعمال على مدى القرون
بدءاً من القرن الرابع الهجرى الذى عاش فيه
القاضي التنوخي ، وقد ظلت قرابة ألف عام
وهي بمنزلة عن اللسان إلا ما كان من التصاقها
بكتاب القاضي التنوخي ، فهي لا تذكر إلا
معه ، ولا ترد إلا متصلة به

وقد حركنا في كتاب النشوار من طرائف
ونوادر لم ترد في نص آخر - همة أديب عربى
معاصر هو الأستاذ العراقى عبود الشالجي
المحامي ، إلى أن ينشر نشوار المحاضرة كاملاً ،
استناداً إلى ما يقع له من مخطوطات لهذا
الكتاب : فنص لهذا الغرض العظيم همته
ودهمه ، وظل يتابع كل مخطوطة لهذا الكتاب

أذكر أن الأجزاء الثلاثة التي نشرت من
(نشوار المحاضرة) بهمة المستشرق البريطانى
المعروف د.س. مرجوليوث وجميل سعيه
كانت من الأعمال الجلية في عالم نشر التراث
العربى حين صدر الجزء الأول سنة ١٩٢١
مطبوعاً في مصر ، وصدر الجزء الثامن في سنة
١٩٣٠ مطبوعاً في دمشق ، وصدر جزء ثالث
في دمشق سنة ١٩٣٢ على أنه ثانياً أجزاء الكتاب
الذى ضاع أكثر أجزائه على توالى العصور .
وفرح الأدباء والعلماء والمؤرخون منذ
صدور الجزء الأول من النشوار سنة ١٩٢١ ،
لأنهم وجدوا في الكتاب مادة ثرية خصبة
لعرض ملامح كثيرة من المجتمعات العربية
الاسلامية في القرن الرابع الهجرى . وهي
ملامح رآها المؤلف التنوخي رأى العين ، أو
سمع بها من ثقات ممن أخذ منهم وروى عنهم .
ومع عروبة المؤلف أبي علي الحسن التنوخي
وأصالته في النسب العربى الصميم ، فإنه لجأ
إلى كلمة غريبة النسب واللفظ ليجعلها عنواناً
لكتابه ، وهي لفظة (نشوار) التي اختارها

في أماكن وجودها ، وأغرم بهذا العمل غراما شديدا ، وظل يبحث عن الأجزاء الضائعة من هذا الكتاب ليضمها إلى المطبوعة :

وهذا البحث والتقصي إلى مخطوطة الجزء الأول بباريس : (إلى مخطوطة تشتمل على الجزئين الأول والثاني في مكتبة براد ملا باستنبول : وقد أكدت له هذه المخطوطة الأخيرة أنها هي الجزء الثاني من النشوار : وأن ما نشر سنة ١٩٣٢ على أنه الجزء الثاني ليس إلا ثالث أجزاء الكتاب : : أما بقية الأجزاء فقد ظلت ضائعة : فكيف يجمعها وينشرها وليس لديه أصولها الخطية ؟

هنا لجأ محققنا الفاضل إلى عمل جريء في عالم نشر التراث لم يسبقه إليه أحد كما يصرح هو بنفسه في مقدمته للجزء الأول من الكتاب .. واجله لم يكن محتاجا إلى هذا التصريح الذي يكشفه القارئ بأدنى نظر دون حاجة إلى اعتراف من المحقق : : ولعله أراد بذلك أن ينتهزها فرصة ليرد بها في إيجاز على المعارضين على منهجه الجريء هذا في التحقيق ، فقال بنص عبارته : « ولعل بعض القصص التي نقلتها كانت من رواية أبي القاسم التنوخي ، ابن المؤلف : ولعل بعض القصص ، وإن كانت من رواية المؤلف ، إلا أنه ليس ثمة دليل قاطع على أنها مما اشتمل عليه كتاب النشوار . وردى على من اعترض على إيرادها عين ما كتبه المؤلف في خاتمة مقدمة الجزء الأول من الكتاب ، حيث قال : « لو كان في إيراد هذه القصص وتسجيلها خير من موضعها بياضا ، لكانت فائدة . . . »

والحق أن المحقق الفاضل التمس الخير من طريق غير مأمون المغبة ، ولا سليم العاقبة ؛ فإن جمع نصوص مفقودة من كتاب من مصادر مختلفة ، لا يقوم في ذاته منهجا سليما لنشر التراث ، أو لنشر كتاب من كتب التراث على الأقل . وهو منهج مع خطورته أو خطره اعترف المحقق بأنه موضع اعتراض من الغير الحريصين على نشر التراث سايبا كما أراد له أصحابه : ولكن الذي أُلجأ إلى ركوب هذا المركب الوعر ، والمزاق الخطر أنه رأى أن ذلك خير من أن تترك مواضع الكتاب بياضا : : كما رأى ذلك المؤلف التنوخي من قبل . . . ولكن شتان بين الموقفين . فأن التنوخي حين كان يجمع الأخبار من أفواه من شاهدها كان له مطلق الحرية والاختيار في إثارة خبر على خبر ، أو تقديم نص على نص . فالنصوص كلها بين يديه ، وهي تستوي في إيرادها جملة أو حذفها جملة أو إيراد بعض وحذف بعض . أما الأستاذ المحقق عبود الشالجي حين ركب هذا المركب لجمع أخبار توهمها للقاضي التنوخي ، أو رواها التنوخي ونقلت عنه في مصادر أدبية وتاريخية أخرى ، فإنه قد يضيف إلى التنوخي ما لم يردده أن يكون في كتابه النشوار . ونحن نشاهد من واقع تجاربنا الخاصة أن المؤلف منا قد يؤثر مؤلفا من مؤلفاته بخبر أو نادرة لا يريد لها أن تكون في كتاب آخر له . فكيف يقضي الأستاذ عبود الشالجي — متحكما وذا سلطان — بأن ما ورد للقاضي التنوخي من روايات وأخبار نقلها عنه الرواة والمؤرخون هي مما اشتمل عليه كتاب النشوار

الذى ضاعت منه أجزاء لم يوقف لها على أثر .
وهل معنى رواية نسبت إلى القاضي التنوخي
في كتاب مثل المنتظم لابن الجوزي ، ومعجم
الأدباء لياقوت الحموي ، ووفيات الأعيان
لابن خلكان أنها مما اشتمل عليه كتاب
النشوار ؟

على أن محققنا الفاضل لا يجد في تلك
القضية الخطيرة بأسا . بل يقول في بساطة :
(ثم حاولت - من بعد ذلك - أن أتبع الفقرات
الضائعة من النشوار ، في ثنايا الكتب ، فأعيد
جمعها . وكان ذلك بدء عمل مضن ، بذلت
فيه وقتا وجهدا وصبرا . وراجعت مؤلفات
ابن الجوزي : المنتظم ، والأذكياء ، وأخبار
الحمقى والمغفلين ، وذم الهوى ، وتلبيس
إبليس . كما راجعت تاريخ بغداد للخطيب
البغدادى ، وتاريخ الوزراء للصائى ، ومؤلفى
ياقوت الحموي : معجم الأدباء ،
ومعجم البلدان ، ووفيات الأعيان ، وغيرها
من الكتب ، فوجدت فيها ينبوعا ثرا من
القصص التى تروى عن مؤلف النشوار ، غير
أنها وردت بأسماء مختلفة . ووجدت أن قسما
من تلك القصص قد أثبتت في الأجزاء
المنشورة من النشوار . فتأيد لى من ذلك أن
القصص التى وردت مروية عن أصحاب تلك
الأسماء ، إنما هى مروية عن صاحب النشوار ،
وأنها قد اقتطعت من ذلك الكتاب ، فاستللتها
من مواضعها ، وضممتها إلى بعضها ،
واعتبرتها من الفقرات الضائعة من النشوار .)

هكذا وبكل بساطة استوى من كتاب
نشوار المحاضرة - المفقود بعض أجزائه -

بضعة أجزاء استلها المحقق من كتب أخرى
متوهما أنها من النشوار - دون سند صحيح أو
بينة قوية - وليس لها من سند ألا أنها وردت
في طائفة من المؤلفات منسوبة إلى التنوخي ،
فجزم محققنا الفاضل بأنها من نشواره .

وهنا نسأل سؤالا آخر : كيف جاز لمحققنا
الفاضل أن يجمع هذه الأخبار الشتى من مصادر
متفرقة ، ثم يؤلف من كل طائفة منها جزءا
يسميه الجزء الرابع ، أو الخامس ، أو السادس
من النشوار ؟ فهى جمعه وتنسيقه وتقسيمه هو
لا جمع المؤلف ولا تنسيقه ولا تقسيمه . ومن
هنا هل نجرؤ على القول إن هذا المنشور كله
هو نشوار المحاضرة كما أراده مؤلفه وجامعه
الأصلى ؟ وما الظن لو أن الجزء الخامس من
النشوار المخطوط قد كتب له الظهور بعد خفاء ،
فهل نجده مثل الجزء الخامس الذى صنعه المحقق
الفاضل ؟

الحق أن دافعا نبيلًا ، وباعثا عظيما هو الذى
حمل الأستاذ عبود الشالجي على أن يسلك هذا
المسلك الوعر ، حتى يضم أشتات ما تبعثر من
أجزاء النشوار المخطوطة الضائعة ، وحتى
يسوى من ذلك الذى جمعه كتابا يسميه هو
نشوار المحاضرة ، ولكننا نخشى أن تكون
المقابلة بينه وبين الكتاب الأصلى مخيبة للآمال .

على أن الأستاذ المحقق لم يلجأ إلى هذا الجمع
استهانة به ، وتهوينا من شأنه . فقد كان يعلم
أنه مقبل على أسر عظيم ، وأن هذا الجمع
المتبع ، والتعقب الدقيق لمرويات القاضي

التنوخى ومأثوراته مما هو أشبه أن يكون من كتاب النشوار هو عمل شاق مضمّن اقتضاه كثيرا من الجهد ، والتنبه والتفطن إلى المظان ، كما اقتضاه أن يحمل مسئولية لا يقوى عليها كثير من أصحاب العزائم . فهو يعلم أن عمله هذا ومنهجه في الجمع قد لا يرضى الملتزمين بأصول التحقيق ونشر التراث : ولكنه أقدم على ما توسمه صحيحا ليصون لنا كتابا ضائعا . وقد يكون - غفر الله له - قد بعد بكتاب النشوار عن أصله وعن نسقه ، ولكننا نراه راضيا عن عمله هذا ، لأنه لم يقصد به إفساد نص ولا بتره ولا التزيد عليه ، ولكنه أراد به رد الاعتبار والوجود إلى كتاب أغلبه ضائع مفقود :

وهب أن ما جمعه الأستاذ عبود الشالجي ليس النصوص الكاملة لكتاب نشوار المحاضرة ، فهل ننكر أن هذه المجلدات الثماني الأنيقة الطبع ، الجميلة الأخراج تعد في ذاتها ثروة أدبية تاريخية رواها القاضي التنوخى ، ولو لم تكن من متن كتابه نشوار المحاضرة ؟ وإذا جاز لبعض الملتزمين بأصول النشر ، وقواعد تحقيق التراث أن ينكروا أن نشوار المحاضرة في هذه الأجزاء الثمانية هو نشوار التنوخى الأصلي ، فهل ينكرون أننا الآن مع كتاب رائع طريف حافل بأكثر ما روى عن القاضي التنوخى من أخبار ونوادير وأسمار ؟

فلنقبل هذه الحصيلة العظيمة الضخمة من أخبار القاضي التنوخى في هذه الطبعة الرائعة

التي أصدرها الأستاذ عبود الشالجي ، ولنغض النظر - ونحن مستمتعون بأطيب ما فيها من طرائف - عن أنها هي نشوار المحاضرة كاملا غير منقوص ، ولا مزيد : ❦

وهل تشغلنا هذه القضية في منهج تحقيق التراث من أن نعرف بما بذله المحقق من جهد ، وما أسداه عن فضل حين قدم لنا مجموعة نادرة من أخبار القاضي التنوخى ومذاكراته ومحاضراته الشائقة سواء كانت مما اشتمل عليه كتاب النشوار أم لا ؟ إنه في الحق أمتعنا بثمرة طيبة من ثمرات التنوخى لم يشأ أن يجعلها بياضا ، فدونها وجمع أشأتها . ولك بعد هذا أن تسميها قصصا وأخبارا من نشوار المحاضرة للتنوخى ، أو قصصا وأخبارا من مرويّات التنوخى

وقيمة هذه القصص والمرويّات والأخبار الطريفة العجيبة أنها أدخل في باب تصوير المجتمع العربي الإسلامي منها في باب الأدب والأسرار ، فهي صور واقعية وقعت في القرن الرابع الذي عاش فيه التنوخى ، وهي صور فيها كثير من ملامح بغداد وأهلها ، وأفراحها ومآتمها ، وعبادها وفساقها ، وقضاتها وشهودها . . . وقد خالط التنوخى كل لون من الناس ، وعاشر كل جنس ، ولقى العلماء والشعراء في زمانه وروى عنهم :

وأنشد أشعارهم أو استنشدهم إياها . وكان ممن
لقبه المتنبي وقال عنه في مقدمة نشواره :
(وما أحسن ما أنشدني أبو الطيب المتنبي
لنفسه من قصيدة في وصف صورتنا :

أتى الزمان بنوه في شبيبته
فسرهم وأتيناها على الهرم)

ولم يكتف التنوخي بأن يسمع من فم أبي الطيب
شعره يلقيه عليه الشاعر الفحل بنفسه ، بل إنه
ازداد على المتنبي اجترأ فسأله عن نسبه وهو
يمر ببغداد سنة ٣٥٣ هـ ، ولكن المتنبي الغامض
اعتذر لسأله عن الأفصاح عن حقيقة نسبه .
والتقى التنوخي بالشاعر الماجن ابن حجاج
البغدادى ، وروى شيئا من شعره الذى أنشده
في مجلس الوزير أبي الفضل الشيرازى : وقد
أعان التنوخي على الجاه في عصره صلتته بأعظم
الرجال في وقته ، فهو قريب من عضد الدولة
البويهى ، وهو معروف عند الخليفة العباسى
الطائع ، ومن هنا أتيج له أن يخطب في الحفل
الذى أقيم عند زواج الخليفة الطائع بابنة الملك
البويهى عضد الدولة

وقد أتاحت الملابس المختلفة لصاحب
النشوار أن يرى المجتمع العربى في ظاهر أمره
وخافيه ، وأن يدخل إلى القصور كما يتسلل إلى
الأكواخ . ومن هنا نقع في النشوار على غرائب
الأحداث ، فهناك حكايات واقعية عن مروءة

الوزير حامد بن العباس ومكارم أخلاقه ، وعن
وقار الوزير على بن عيسى وتزمته ، وعن ابن
رزق الله التاجر البغدادى الذى يوقف في بلاد
الروم أكسية لتدفئة أسارى المسلمين ، وعن
الوزير عبيد الله بن سليمان الذى يبيع جزءا من
مال الدولة لأحد صنائعه . . . وعن هندى
يقتل فيلا عظيما بسيفه دون حاجة إلى سلاح ،
وعن القصرى غلام الحلاج الذى كان يصبر
على الجوع خمسة عشر يوما ، وعن المرأة
البغدادية التى كانت تنظر فتحرف القرآن .
وعن النحوى الزجاج وكيف درس النحو على
المبرد صاحب الكامل ، وعن ابن الخواصة
الذى فتح داره لترتكب فيها الفاحشة علانية ،
وعن ذلك الرجل الذى خبأ ماله في برنية ،
فعجل ذلك بسرقتها ، وعن كردك الديلمى
الذى اغتال رجلا استأمنه طمعا في ماله . . .
وغیر ذلك من الأحداث التى كانت تموج
بها بغداد والعراق والبصرة وبقاع كثيرة من
العالم العربى . ومن أجل هذا ازدحم كتاب
النشوار في طبيعته الجديدة بمئات ومئات من
المصطلحات التى فهرس لها المحقق في معجم
عمرانى عام ؛ وهو معجم يهديننا إلى آلاف من
المصطلحات التى خلقتها طبيعة المجتمع العربى
في عصر التنوخي وما حوله بقليل ، ولن نأخذ
هنا في سرد بعض هذه المصطلحات ، ولكن
القارئ للنشوار سيجد فيها حصيلة تصور له

المجتمع العربي على حقيقته . وتدلنا حقيقة هذه الصور على أن الأول لم يترك للآخر شيئاً
وأنا اليوم نكرر ما دار بالأمس تأكيداً لمسيرة الإنسانية في مسارها الطويل . فعندنا اليوم ما يسمى (بالمزاد) الذي تباع فيه السلع - وخاصة المستعملة - عن طريق المزايدة على أسعارها ، فصاحب السعر الأعلى يرسو عليه المزاد . وقد كان ذلك في العصر العباسي ، وكان يسمى (النداء) لأن إعلان السعر كان يتم بطريق المناداة عليها . وقد كان من عادة النعمان بن عبد الله - وهو أحد كبار العمال في الدولة العباسية - إذا كان في انسلاخ كل شتاء ، أن يعتمد إلى جميع ما استعمله من خز وصوف وفرش وكوانين وآلة الشتاء فيبيعه في « النداء » أي في المزاد لينخلص منه .

والحق أننا لا نملك أنفسنا إزاء ما في النشوار من أخبار وحكايات ووقائع أن نعجب مما صنعه المؤلف ليجمع مادة هذا الكتاب الممتع الطريف . ومزية القاضي التنوخي أنه لم يجمع مادة كتابه من كتاب كما كان يصنع غيره من المؤلفين ، وإنما جمعه مما تنثر على أفواه الرجال ، وما دار بينهم في

المجالس . . . فهو كتاب منقول عن الأفواه لا عن صفحات الكتب ، وزاد عليه التنوخي ما رآه هو بعينه في خلال غفلاته الكثيرة في الحياة . ويبدو أن كتب النشوار قضى عليه أن يستغرق حقبة طويلة من الزمان جمعاً في البداية ، وإعادة جمع في نهاية المطاف بعصرنا هذا . . . فقد قضى التنوخي في تأليفه عشرين عاماً كما جاء في معجم الأدباء . لياقوت ، وقضى المحقق عبود الشالجي أعواماً كثيرة في جمع ما تصوره ضائعاً من أخبار النشوار ، وكذلك الكتاب العظيم يحتاج إلى وقت أطول ، وجهد أعظم .

وإذا كان القاضي التنوخي غير مسبوق فيما اتخذه لنفسه من منهج لتأليف كتاب نشوار المحاضرة ، وذلك عندما اشترط على نفسه أن لا يجمع كتابه من كتاب ، فإن صديقنا الروحي الأستاذ عبود الشالجي غير مسبوق حين استخلص ما ضاع من أجزاء النشوار وجمعها من كتب أخرى غير الكتاب الذي يحققه ، وكأنه بهذا أراد أن يوائم بين سبق التنوخي وسبقه حتى تتم المشاكلة في العمل العظيم .

ولم يقدم الأستاذ عبود الشالجي طبعته
لكتاب الشوار عارية من الجهد الذى يدل
على ما بذله فى سبيل تحقيق النصوص التى
جمعها من مختلف المظان، فكل صفحة
من الكتاب فى أجزاء الثمانية المطبوعة على
أجمل ما تكون الطباعة العربية تزدهم
بالهوامش المزدحمة بالتعليق والتحقيق والمقابلة
والترجمة للأعلام وغير ذلك مما تقتضيه

أصول النشر العلمى : وهذه الفهارس المتنوعة
فى كل جزء لموضوعات الكتاب وأسماء
الأشخاص ، والفهرس الجغرافى ، والفهرس
العمرانى وثبت المراجع والمصادر للتحقيق،
تدل كلها على الروح العلمية التى يتسم بها
محققنا الجليل :

محمد عبد الفنى حسن